

دراسات تطبيقية عن الانزياح اللفوي وأثره في بنية النص الأدبي

وتشمل :

- نونية أبي البقاء الرندي.

يقول أبو البقاء الرندي (٤) :

ككل شيء إذا ما تم نقصان
فلا يفر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دولٌ
من سرّة زمنٍ ساءت أزمانُ
وهذه الدار لا تبقى على أحد
ولا يدوم على حال لها شأنُ
يمزق الدهر حتمًا كل سابغةٍ
إذا نبت مشرفيات وخرصان
ويتضي كل سيف للفناء ولسو
كان ابن يزن والغمد غمدان
أين الملوك ذوو التيجان من
يمن وأين منهم أكاليلٌ وتيجانُ
وأين ما شاده شدّادٌ في
إرمٍ وأين ما ساسه في الفرس ساسانُ
وأين ما حازه قارون من ذهب
وأين عادٌ وشدّادٌ وقحطانُ
أتى على الكل أمر لا مرد له
حتى قضوا فكان القوم ما كانوا

وصار ما كان من مُلكٍ ومن ملكٍ
كما حكى عن خيال العليِّفِ وسنانُ
دار الزمان على دارا وقاتله
وأُمُّ كسرى فما آواه إيوانُ
كأنما الصعب لم يسهل له سببُ
يومًا ولا ملك الدنيا سليمانُ
فجائع السلمر أنواع منوعة
وللزمان مسرات وأحزانُ
وللحوادث سلوان يسهلها
وما لما حل بالإسلام سلوانُ
دهى الجزيرة أمرًا لا عزاء له
هوى له أحدٌ وانهد تهلانُ
أصاها العينُ في الإسلام فارتزأتُ
حتى خلست منه أقطارَ وبلدانُ
فاسأل بلنسية ما شأنُ مرسيةِ
وأين شاطبةٌ أم أين جيانُ ؟
وأين قرطبةٌ دارُ العلوم فكهم
من عالمٍ قد سما فيها له شانُ ؟

وأين حمصٌ وما تحويه من نزه
 ونهرها العذب فياض ومالان ؟
 قواعدٌ -- أركان البلاد فما
 عسى البقاء إذا لم تبق أركان
 تكفي الحيفية البيضاء من أسف
 كما بكى لفراق الإلف هيمان
 حيث المساحد قد أضحت كنانس ما
 فيهن إلا نواقيسٌ ومملبان
 حتى المحاريبُ تكفي وهي جامدة
 حتى المنابرُ ترثي وهي عيدان
 ما غافلاً وله في الدهر موعظة
 إن كنت في سينة فالدهر يقظان
 وماشياً مرخاً يلقيه موطنه
 أبعد حمصٍ تغرُّ المرء أوطان ؟
 تلك المصيبة أنست ما تقدمها
 وما لها مع طول الدهر نسيان
 يا راكبين عتاق الخيل ضاهرة
 كأنها في مجال السبق عقبان

وحاملين سيوفاً الهند مرهقة

كأنها في ظلام النقع نيران

وراتعين وراء البحر في دعة

لهم بأوطانهم عزّ وسلطان

أعندكم نبأ من أهل أندلس

فقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم

فقلبي وأسرى فما يهتز إنسان

لماذا التقاطع في الإسلام بينكمو؟

أنتم يا عباد الله إخوان

ألا نفوس أئيات لها همم

أما على الخير أنصاراً وأعوان

يا من للذلة قوم بعد عزهم

أحبال حالهم جوراً وطغيان

بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم

واليوم هم في بلاد الضدّ عبدان

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم

عليهم من ثياب الذل ألوان

ولر رأيت بكاهم عند بيعهم
لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يا رب أم وطفل حيل بينهما
كما تفرق أرواح وأبدان
مثل هذا يذوب القلب من كمد
إن كان في القلب إسلام وإيمان

في هذه القصيدة الرائعة الخالدة يتحدث الشاعر عن دولة الأندلس ، ومجد
العرب الدائر ، وكيف ضاع هذا الفردوس ، ولم يبق لنا منه سوى الأطلال
والحسرات التي تنجرعها ، ولا نكاد نسيغها كلما عنت الذكرى ، وهبت رياح الماضي
وكلما قرأنا التاريخ ، وما يحمل في طياته من عظام باقيات ، وعبر موجعات ، في
هذه القصيدة الرائعة

يتجلى الانزياح اللفوي واضحا متمثلا في عنصرين:

الأول: يخص المفردات اللغوية في تشكيلها الفردي العمودي :

ونقصد به تشكيلها داخل الجمل ، حيث يتم التغيير والخروج عن المألوف على

مستوى الصياغة .

الثاني: المفردات اللغوية في بنائها العلائقي الأفقي :

ونقصد به ما يحدث من خرق وتغيير على مستوى العلاقات الإسنادية .

القصيدة من بدايتها تنضح فيها معالم العنصر اللغوي الأول في الانزياح

اللغوي المتمثل في تشكيل مفردات لغوية محكومة بجمالية الصياغة . فالفعل

(يغر) .

لكل شيء إذا ما تم نقصان

فلا يغرب بطيب العيش إنسان

يحتل موقعا فريدا يشع على ما حوله إذ يحمل معنى التحذير من التماذي

والاستمرار في الخلود إلى الدعة والراحة استنادا إلى رغد العيش وطلب الحياة .

وفي تقديم الجار والمجرور (لكل شيء) على المبتدأ المنحرف (نقصان) انزياح

واصح أفاد الاهتمام بالتقدم ، وعمومية النقصان وشموليته كل شيء في هذا الكون .

وكذلك وجود الشرط (إذا ما تم) بين المبتدأ والخبر خروج بالجملة عن

الألوف ، والتقدير والترتيب المنطقي أن يقال : إذا ما تم كل شيء فلا بد أن يعرفه

النسيان ، غير أن الشاعر قصد إلى هذا الانزياح عوي بالخروج بالجملة عن

المألوف وعن الترتيب الطبيعي إلى تسليط الضوء على حدود النقصان في الأشياء .

كما أسلمه هذا التقديم المناسب في موضعه إلى ذكر الحكمة (فلا يغرب بطيب

العيش إنسان ، وكانني به يؤكد ما أتى به من تقديم وتأخير ، وحتى في الحكمة

نفسها لم ينس أن يؤخر الفعل (إنسان) بغرض الإثارة والتشويق .

ويكون الشاعر- بهذا الانزياح المبالغت في البيت الأول - قد مهد للولوج إلى

بيان كارثة الأندلس وما حل بها .

وفي قوله :

وينتضي كل سيف للفناء ولو

كان ابن يزن والغمد غمدان

التعبير بالفعل (ينتضي) في البيت الخامس يحمل معنى التحفز واتخاذ موضع القتال والعراك ، فما كان للدهر أن يقاتل ولكن اختراق اللغة جعل له أسلحة ينتضيها في مواجهة بني الإنسان .

والشرط في قوله : ولو كان ابن نزي يزن ، محذوف الجواب ، والتقدير لقاتله، والحذف هنا أوقع وأجدى إذ دل عليه وجود الفعل (ينتضي) في أول البيت ، ومفهوم أنه : لو كان ابن نزي يحاربه لانتضى لقاتله .

أين الملوك ذرو التيجان من يمن

وأين منهم أكاليـلٌ وتيجانُ

وأين ما شاده شدادٌ في إرم

وأين ماساسه في الفرس ماسانُ

وأين ما حازه قارون من ذهب

وأين عبادٌ وشدادٌ وقحطانُ

انظر إلى تكرار اسم الاستفهام (أين) ، وما حدثه من دلالة ، إنه تكرار عن عمد وإصرار قصد به تعداد ما ضاع في الأندلس المفقود ن فقد ضاع الملوك العظام الذين كان يشار إليهم بالبنان كما ضاع ما شيده من عزجاه وحضارة يشهد بها الزمان ، وقد قاده هذا التكرار إلى الرجوع بذاكرته إلى الوراء فتذكر قارون وذهبه الذي فاق كل تصور وحد ، وتذكر ماساسان وما شاده من ملك فارسي عريق ، وتذكر قحطان وإرم وعاد التي لم يخلق مثلها في البلاد ، ولسان حاله يقول مسرعا نفسه من ألم : لقد فنى ملك هؤلاء جميعا وضاع ما كان لهم من سطوة وعز وسلطان كما ضاع الأندلس ، وذوت نضارته وانتهت دولته .

وفي قول الشاعر :

دهى الجزيرة أمرًا لا عزاء له

هوى له أحدٌ وانهد نهلانُ

الأفعال : دهى ، هوى ، انهد أفعال ماضية تفيد التحقق ووقوع الشيء ،
جاءت كلها في معرض الحديث عن هرب الفاجعة وفنة المصاب بعد هزيمة
العرب وضياع الأندلس ، فجعل الهزيمة شيئًا ماديًا يهد ويقل ويدمر الحجارة
الصلبة ، وهذا خرق للمألوف من الكلام .

أما تقديم الجار والمجرور في قوله (له) على الفاعل (أحد) ففيه انزياح
لغوي يحمل دلالة خاصة قصد بها الاهتمام بالأمر الذي دها الجزيرة وأرق
مضاجعها.

ثم انظر الانزياح اللغوي في قوله :

تبكى الخنيفة البيضاء من أسفٍ

كما بكى لفراق الإلف هيمانُ

لمثل هذا يذوب القلبُ من كمدٍ

إن كان في القلب إسلامٌ وإيمانُ

فقد أخرج الفعل (هيمان) وأتى به بعد الجار والمجرور والمضاف إليه (لفراق
الإلف هيمان) لدلالة ملاموسة نجدتها في التشويق والإثارة التي أحدثتها هذا التأخير .

ولم يبدأ الشاعر في البيت الثاني بالفعل مؤثرًا أن يكون الابتداء بالجار
والمجرور في قوله (لمثل هذا يذوب القلب) ، لأن هدفه وغايته التركيز على الفطائع
التي حلت بالأندلس ، والتي من شأنها أن يذوب القلب لها كمدًا وألمًا .

وفي قوله :

- تبكي الحنيفة البيضاء من أسف .

- يذوب القلب من كمد .

تصوير فيه خروج عن المألوف إذ جعل الحنيفة البيضاء (وهي شيء جامد)

جعلها تبكي .

وقوله :

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة

كانهما في مجال السبق عقبان

وحاملين سيوف المناد مرهقة

كانهما في ظلام النقع نيران

وراتعين وراء البحر في دعة

لهم بأوطانهم عز وسلطان

صيغة اسم الفاعل : راكبين وراتعين وحاملين بمالها من دلالة على الفاعلية

والاستمرارية فبينت ما كان عليه العرب من يقظة وأهبة ومقدرة واستقرار ملك

حتى وقع ما وقع .

وفي الأبيات الثلاثة انزياح يتمثل في تقديم الجار والمجرور (الخير) على

المبتدأ النكرة ، في قوله :

- في مجال السبق عقبان

- في ظلام النقع نيران

- لهم بأوطانهم عز وسلطان

ولعل غاية الشاعر من الخروج عن ترتيب الجملة ، التركيز والاهتمام
بأشياء بعينها :

- التركيز على مجالات السبق

- والتركيز على هول المعارك وظلمات النقع

- والتركيز على الأوطان لما لها من أهمية

زد على ذلك ورود المبتدأ نكرة في كلمات : عقنان - نيران - سلطان بقصد

الشمول والعموم .

وكذلك أساليب الاستفهام :

- ما شأن مرسيةً ، وأين شاطبةٌ أم أين حيآن ؟

- وأين قرطبةٌ دارُ العلوم فكم من عالمٍ قد سما فيها له شأن ؟

- وأين حمصٌ وما تحويه من نزه ، ونهرها العذب فياض وملآن ؟

- ألا نفوسٌ أبياتٌ لها هممٌ ؟ أما على الخيرٍ أنصارٌ وأعوانٌ ؟

كلها جاءت في معرض التحسر والأسى . واستنهاض الهمم التي أصابها الخور
والتخاذل والتفريط ، فاطلخم الأمر ، وتفرقت الأهواء ، وتمزق الشمل فوقعت
الطامة.

وفي ثنايا الاستفهام نلمح التقديم في قوله :

(سما فيها له شان) إذ المفروض القول : سما شان له فيها ، لكنه أثر

الخروج عن المألوف وترتيب الجملة الطبيعي ليسلط الضوء على قرطبة التي كانت
حاضرة العلوم والمعارف آنذاك ، ثم انظر إلى التكرار المقصود لاسم الاستفهام

(أين) وما فيه من دلالة على فقد الأماكن : مرسية وشاطبة وجبان وقرطبة
وحمص ، وكلها معالم مشهورة في الأندلس الرطيب الذي افتقدناه وضاع من بين
أيدينا .

والشيء نفسه في التقديم في قوله :

(ألا نفوس أبيات لها همم) فقد قدم الجار والمجرور (لها) على كلمة
(همم) وذلك للتركيز على هذه النفوس الأبيات التي كان ينشدها الشاعر ويريدها .
وفي قوله :

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم
عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم
لهالك الأمر واستهوتك أحزان
بارب أم وطفل حيل بينهما
كما تفرق أرواح وأبدان
مثل هذا يذوب القلب من كمد
إن كان في القلب إسلام وإيمان
أنزياح ملموس نلمحه قي :

- عليهم من ثياب الذل ألوان : تقدم الجار والمجرور (عليهم) على المبتدأ
(ألوان) وذلك للتركيز على المتقدم (هم) أي أهل الأندلس وما آل إليه حالهم من
ذلة ومهانة .

- مالك الأمر ، واستهوتك أحزان : انزياح ماثل في تقديم المفعول به
(الكاف) على الفاعل (الأمر) ، (أحزان) قصد به إثارة شفقة
المخاطب والاهتمام به .

- أما الانزياح في قوله : يارب أم وتعلل حيل بينهما فواضح في بناء الفعل
للمجهول وحذف الفاعل ، وذلك للعلم به ، لكونه معلوما ، فكلنا يعلم أن
الذي فعل كل هذه الأفاعيل هم الأوربيون المعتدون .
- وفي البيت الأخير تقديم في قوله :

لمثل هذا يدوبُ القلبُ من كمدٍ

- وفي قوله :

إن كان في القلب إسلامٌ ويمانُ

فتأخير الفعل (يدوبُ) عن الجار والمجرور والمضارع إليه (لمثل هذا) يدل
شدة ألم الشاعر مما حدث للأندلس ، لذلك يعنيه ويؤثره عن البدء به رغم ما في ذلك
من خروج عن المؤلف .

- وتأخير اسم كان (إسلامٌ) عن خبرها (في القلب) انزياح غرضه التأثير في
المخاطب وإثارة وجدانه .

أما في المجال البناء العلائقي للمفردات فنلمسه في :

- الاتكاء على صيغة الفعل الماضي في تشكيل الخطاب الشعري ، إذ ورد في
ثمانية وثلاثين موضعا ، كونه ركنا أساسيا في بناء الجملة الفعلية التي
أشاعت حالة التحسر والرثاء وأكدت وقوع كارثة ضياع الأندلس .

- وفي أساليب الاستفهام :

وَأين شاطبةُ أم أين حيانُ ؟

- ما شأنُ مرسيةٍ ،

- وأين قرطبة دار العلوم فكلم من عالم قد سما فيها له شأن ؟
- وأين حمص وما تحويه من نزه ، ونهرها العذب فياض وملآن ؟
- ألا نفوس أبيات لها همم ؟ أما على الخير أنصاراً وأعوان ؟
- استند إليها الشاعر في تكوين بنية القصيدة ، فكانت (ما وأين والهمزة وغيرها من الأدوات) وسائل يبط وطلدت العلاقة داخل النسيج الشعري ، وأحدثت دلالات التحسر
- التحسر والأسى ، واستنهاض الهمم التي أصابها الخور والتخاذل والتفريط ، فاملخم الأمر ، وتفرقت الأهواء ، وتمزق الشمل فوقعت الطامة . ثم كان لوجود الأساليب الإنشائية إلى جوار الخبرة أثره الواضح في تنوع الخطاب وإثارة الانتباه.
- وفي وصف الملوك بأنهم (ذوو التيجان) ، وقرطبة بـ (دار العلوم) ، ووصف الحذيفة بـ (البيضاء) ، ونفوس بـ (أبيات) ما يمكن إدراجه ضمن جمالية الفائض الوصفي. الذي يهدف إلى تعميق الوعي بالذات التي تعيش مأساة نفسية عميقة .
- من هذين العنصرين : المفردات اللغوية في تشكيلها الفردي ، وفي بنائها العلائقي يتحقق الانزياح الشعري الذي يشكل بدوره هيكل القصيدة الشعرية .

الهوامش

- (١) المعجم الوسيط ، ج ١ ص ٤٢١
- (٢) اللغة والخطاب الأدبي ، اختيار وترجمة سعيد الغاسي ، المركز الثقافي ،
الدار البيضاء ، بيروت ط١ ١٩٩٣ .
- (٣) دلائل الإعجاز ص ٤٠
- (٤) الأدب الأندلسي ، دكتور أحمد هيكل ، دار المعارف ١٩٧١ .